من صدائق الناسك

الاب لورنسيوس الحيمري الديراني

الناسك الحلبي اللبناني

بقلم الاب لويس الحداري الديراني
المدبر الحلبي اللبناني ، والوكيل الاسقفي في كرسي ابرشية صيدا المارونية

١

توطئة

نحمد الله الذي انعم علينا اولاً بوديعة الايمان ، ايمان الكنيسة المقدسة الكاثوليكية الراسخة اساساتها على الصخرة البطرسية . ونشكره ثانياً لايجاده ما بيننا نفوساً تقية ، تضيء امامنا كالمصابيح في دجى ارضنا الشقية ، فتمهد لنا سبيل الخلاص الذي يتراءى لنا منطبقاً بالاشواك . اما بعد فقد ترددنا كثيراً قبل ان نُبرز الى حيّز الوجود خلاصة حياة الأب لورنسيوس الناسك الحلبي الذي هرب من العالم وشهرته والتجأ الى الدير ، ولم يكفه الدير بل اختبأ في زوايا المحبسة ليبعد الله بعيداً عن قرقعة المجد الباطل . ولكن بعد التفكر ملياً رأينا من النقص ان نحرم النفوس التقية من كنز غني بالفضائل ، وكان مما دفعنا ايضاً الى تسطير حياته النسكية الصالحة ان نكمّ افواه المتشدقين زوراً وبهتاناً بان محبة المسيح رقدت مع الاجيال الغابرة . فهذه التَرجمة هي برهان ساطع على ان المسيح هو ملك كل الاجيال . وفي كل آن يجد نفوساً كريمة تتفانى بخدمته . يسوع وحده سلطان القلوب ، وهو وحده غلبت محبته العصور ، وعاشت ما وراء القبور ، ووجدت لها ملايين من الشهداء يثبتون ذلك بدمائهم ، والوفاً وربوات من القديسين المترفين والنساك الابرار ينادون بها فوق المنابر ويعظمونها بسيرة حياتهم القشفة ، ويتفاخرون بانهم أسراها .

فعظيمة اذاً هذه الشعلة العجيبة من المحبة التي تكهرب القلوب من بعد انقضاء عشرين جيلاً ! وعجيب الله في اصفيائه !

وصف المتعبد

كلمة عن العزلة

هنـاك بين ربى لبنان الجميلة التي تطلُّ على بحر الروم المملوء بالتذكارات التاريخية ، قرية حقيرة جادت عليها الطبيعة بغزارة الماء وطيب الهواء ، وأنعمت عليها السماء باكثر من ذلك اذ ارسلت اليها النساك الاتقياء الذين اشتهروا بالعلم والفضيلة . هذه القرية تُسمّى مار بطرس كريم التين . موقعها شرقي بيروت ، بالقرب من قريتي بكفيا وبيت شباب . بجوار تلك القرية دير لرهبانيتنا الحابية ، والى جانب ذلك الدير كوخ صغير شيدته يد التقوى ، وزينته يمين الحب ، فاصبح معبداً لتمجيد الله ترتفع حوله جفنة من الكرم فتكوّن خيمة واسعة لا يشبع الناظر من التأمل فيها ، نظراً لما هي عليه من بديع الترتيب والاتقان . وهناك ايضاً اشجار جميلة من السرو والشربين كأنها سَرِيّة تحرسُ ذاك المكان ، تتايل عجباً في الجوّ عندما يحرّكها نسيم ذاك الوادي ، فيخيل لك انها ترتل أنشودة الحرية والجمال ، وتسبح الله القادر المتعال . وهناك اخيراً صخور شامخة تتدرّج فوق أودية عميقة ، كأنها اشباح تفكر في سرّ هذا الكون ، فتصيغُ اجمل المناظر التي تبرهن عن قدرة الخالق العظيم .

هناك في وسط تلك العزلة التي يؤنسها حفيف الاشجار وخرير الانهار وزقزقةُ العصافير ، بعيداً عن شرّ الانسان ، في وسط الهدوء والسكينة ، تحت ذاك الجو الذي ترفرف فيه ملائكة السلام ، قد اختار ناسك مار بطرس مسكنه ، ليعبد الله ويحارب الشيطان والعالم واللحم . هناك في تلك العُزلة أقام مذبحاً ليصلي ، وهل مثل العُزلة للصلاة ؟ العزلة طعام الفكر وقوت الحب ولذة القلب . . . في العزلة تنزل الالهامات الالهية التي تشفي النفس من كلومها السرية ، فتنسجم بسهولة دموع التوبة النقية ، في العزلة تختبي الطهارة ويلتجيء الضعف المضطهَد ، في العزلة تتمرّن النفس على المكافحة ، ويرتاح الضمير المضطرب ، في العزلة يحلو التأمل في كمالات الخالق لان فيها تنضج الافكار السامية ، في العزلة جاهد انطونيوس الكبير جهاده المشهور وغلب

عساكر الشياطين ، في العزلة بكى اوغسطينوس ضلاله وصار مثال الوداعة ونبراس الهداية في بيعة الله . وفي العزلة تعلم جهور القديسين الجهاد المقدس ، وألف العلماء تآليفهم الشهيرة واخترعوا اختراعاتهم العظيمة . واخيراً في هذه العزلة المقدسة ، اراد الاب لورنسيوس الحيري ، صاحب هذه الترجمة ، ان يتم حياته ، فنمت زنبقةً طاهرة يفوح منها عبير التقوى . وفي العزلة ايضاً يقضي حياته الآن عبد المسيح الحايك ناسك رهبانيتنا الحالي سائراً في طريق الكمال بنشاط غريب .

فيا ايها القارئ الكريم عندما يتلبد جوّ حياتك بالهموم والاحزان ، أو تهبُّ عليك رياح الضغائن والاضطهاد ، وحينما ترى الدنيا مع سعتها قد ضاقت في وجهك ونفرَ منك الصاحب والصديق ، لا تطلب دواء لنفسك سوى الانفراد ، حيث تقدر على مهل ان تغسل نفسك مما لحق بها من أقذار العالم . انا لا أقول لك اذهب وتنسك ، لان هذه الهبة عظيمة جداً لا يمنحها الله الّا لمن يشاء ، وما هي الّا قسمة النفوس الكبيرة اولئك اللواتي يلمسهن الله باصبعه المقدسة . لا ، انا لا اقول لك ذلك وانما ألحّ عليك ان تنفرد من حين الى آخر ، وتدخل الى ذاتك مضيئاً سراج العقل ، ومفتشاً بتدقيق عمّا يزعج داخلك لتصلحه . واذا اسعدك الحظ وأتيحت لك الفرص لتزور ناسك مار بطرس ، فلا تُبطئ ، لانك تجد لنفسك راحة وسعادة عمّا تنشقهُ هناك من أريج الطهارة والقداسة . هناك تنظر كيف يجاهد القديس جهاده العظيم من اجل الله بهدوء وسعادة داخلية . هناك ترى وداعة المسيح بادية على محيا عبده الامين ، فتتعلم ان تكون متواضعاً ومحباً وتدرك معنى الكفران بالذات وتفهم حقيقة معنى كلمة المسيح : « احملوا نيري عليكم . فان نيري طيب وحملي خفيف . » مهما كان قلبك ، مضطرباً وعقلك متشتتاً ، تحدّث مع ناسك مار بطرس واكشف له همك ، فتشعر حالاً بان السلامة ولجت قلبك وساد السكون في داخلك ، ممّا يسكب على جراحك الخفية من طيب اقوال الانجيل المقدس . انا لا ابالغ بما اقول ولا اشهد ذلك من نفسي فقط ، بل انقل اقوال الآخرين من مسيحيين وغير مسيحيين الذين شهدوا بان في ناسك مار بطرس شيئاً غير

اعتيادي يرفع القلوب الى ما فوق . فهذا الشيء الغير الاعتيادي ان هو الّا الوداعة ... ولا عجب في ذلك أليس هو تلميذ ذاك المعلم الالهي القائل : « تعلموا مني ، فاني وديع ومتواضع القلب .»

إي نعم الوداعة والتواضع ، او بالاختصار البساطة المسيحية ، أُنس الفضائل ووداعتها ورابطة القلوب بعضها ببعض ، هي الفضيلة المميزة خصوصاً في تلك مار بطرس ، فتراها ظاهرة ظهوراً حسياً في ملبسه وكل اعماله . ادخل كنيسة المحبسة فترى البساطة مجسمة هناك بأبهى معانيها ، لا سيما في ذاك المذبح الذي أقلّ ما يقال فيه انه يجذب القلوب رغماً الى تمجيد الله . وما هو ذاك المذبح ؟

هو درجات ثلاث من الحجر الشحمي الثمين ذي الصفاء الاصفر الزيتي ، يعلوها بيت قدس الاقداس يرتفع فوق اربع قوائم من الحجر ذاته ، ويحيط به الى الجانبين عمودان شبه اكليل جميل . اما الزهور الطبيعية والاصطناعية التي تزين ذاك المذبح ، امام رسم العذراء المجيدة يحفّ به جمهور من رسوم القديسين العظام ، فانها آية في اللطف . وزد على ذلك صور درب الصليب الخشوعية ، فيتمثل امامك جمال ذاك المعبد الصغير الذي أُعد لعبادة الله . اما عن تلك الهيبة الماثلة الكنيسة فحدّث ولا حرج . نعم انها توجد في كل بيوت الله ، ولكنها هناك بنوع خاص . فكأنه سبحانه وتعالى يُسرّ باظهار مجده في مثل تلك المواضع .

فاذا تمّ لك ايها القارئ الكريم أن تزور تلك المحبسة وتتمتع بكل تلك المشاهد الحلوة . فلا تنسَ عند عبورك من باب الكنيسة الخارجي ان تلتفت الى يسارك ، وتحيي بخشوع واحترام ضريحاً من الرخام ... ينام فيه نومه الابدي منشئ ذاك المعبد ، الاب لورنسيوس الحيمري ، صاحب هذه الترجمة .

هناك في ذاك الموضع الصغير ترقد حياة طويلة مملوة بالجهاد والمشقات في سبيل الله . هناك تكمن الحلاوة والوداعة والبساطة الملائكية . هناك يسكن الفضل والاناة . هناك ترفرف روح لورنسيوس الطاهرة ، فعليها ، وعلى الانفس التقية ، السلام العاطر .

صداقة لورنسيوس

وُلد لورنسيوس الحيمري في قصبة دير القمر ، والقرن الثامن عشر شيخ ضئيل يمشي على شفير الهاوية . فتلاقيا وتصافحا ثم افترقا كل في طريقه . مشى الشيخ الى القبر ؛ ودبَّ الطفل الى الحياة والجهاد ، يحفظ بامانة في قلبه ذكرى صديقه الشيخ ، اي تلك البساطة المسيحية التي امتاز بها الجيل ، قبل ان تتسرب اليه روح الضلال العصري . لم تنعم الطبيعة على لورنسيوس بالحسب الشريف والنسب العالي . ولكن ما ضرّ البنفسجة ان يكون نباتها اصلًا وضيعاً . أليست هي تلك الزهرة الجميلة الزكية العرف التي تملأ البراري من طيب أريجها؟ وهكذا قل عن لورنسيوس الصغير الذي كان يدهش من حوله ببساطته الملائكية ، وفضائله المسيحية . فكان ابوه ، يوسف الحيمري ، وامه ، بديعة الكك ، ينظران اليه بعين ملؤها الفرح والابتهاج ويشكران الله على ما أنعم عليهما . وكما تنمو زنبقة الحقول الجميلة تحت أشعة شمس الربيع ، هكذا كان ينمو صغيرنا بالطهر والبراءة والجسم والعقل ، تحت أشعة شمس الحب الوالدي ؛ الى ان ترعرع ومال الى العلم ، فارسله والداه الى مكتب البلدة ، وفيه تلقى مبادئ اللغتين العربية والسريانية .

نعم انه كان من الفئة المتوسطة بالذكاء ، ولكن رغماً عن ذلك كان انموذج النشاط بين اترابه ومثال الوداعة بين رفاقه ؛ ولذا اكتسب رضى معلمه وحبّ اقرانه . وكانت الرحمة الفضيلة المميزة فيه منذ الصغر . فكان يبكي عندما يسمع ان احد الفقراء محتاج الى القوت او الى الكساء . وكان يتصدّق ما تخوّله حالته . اما عبادته فكانت حسنة جداً ، وخصوصاً نحو البتول . كما كان يصرّح به هو نفسه في شيخوخته لاحد اصدقائه من وادي شاهين ، قال : « كنت لا اعرف ان اقضي نهاراً واحداً من دون ان أحييها مراراً ، جاثياً . وهي بلا شك قد استمدت لي نعمة الخروج من العالم الغرّار منذ تركته في سن الخامسة عشرة . . . »

(لها بقية)